يقظة شعب

كرست الزوجة حياتها لأولادها، وتعطيهم ما بقى لها من قوة وشباب، وبالمعاش المحدود تدير حياتها محاولة قدر استطاعتها أن توصلهم شاطئ الأمان قبل غروب شمسها. . وفى كل يوم تحس أنها تتراجع إلى الخلف؛ فالأعباء أكبر من أن يتحملها عاتقاها الضعيفان، خصوصًا أنها قد وضعت مولودها الصغير عقب استشهاد زوجها فى الحرب.

وبعد مرور عامين. . وفى يوم لافح من أيام شهر يوليو 1952م استيقظت الزوجة على ضجيج الناس وأناشيد فى الإذاعة وحركة نشطة فى الشارع لم تألفها من قبل، وعرفت من ابنها حسين أن الجيش قام بثورة أطاحت بالفساد، وحطمت أغلال الظلم، وأعادت إلى مصر وجهها الأبيض المشرق الذى سودته الهزائم المتلاحقة نتيجة الإهمال والخيانة والغدر.

وتابعت الزوجة أخبار الثورة، فلديها من المعرفة التى استقتها من زوجها الراحل الشيء الكثير عن الجيش وضباطه الأحرار الذين كانت تتسرب أخبارهم فى همس لا يكاد يستبين أو يصدق. . حتى انجلت الحقيقة وحمل الأحرار أرواحهم على أيديهم ليفدوا بها مصر وشعبها الأبى.

وانتهى ابنها حسين من دراسته المتوسطة واجتهدت فى أن تجد له عملا حتى يعينها على إتمام إخوته دراستهم. . ولم تجد أمامها وسيلة غير أن تلجأ إلى أحد المسئولين فى الثورة ليعيّن ابنها. . وبسرعة أخذ حسين وظيفة مناسبة تناسب مؤهله. . فهو ابن شهيد يجب أن يكرم. . وكانت قد أعيتها الحيل من قبل فى إيجاد عمل له. . واستردّت الزوجة أنفاسها إلى حدٍّ بعيد، وأحسّت أن الدنيا

يمكن أن تعوضها فى أبنائها ولو شيئًا قليلاً مما قاسته بعد رحيل رب الأسرة.

وتلاحقت الأحداث سريعًا.. وشاهدت انتصارات لم تكن تحلم بها فى يوم ما، فتمنت لو كان زوجها حيًّا ليرى ما كان يتمناه من قبل ويظن أن تحقيقه أقرب للمستحيل.

فالإقطاع انهار تمامًا، واستردّ الشعب أكثر حقوقه المغتصبة، وانتهت الأحزاب الفاسدة إلى غير رجعة.. وجـرّت فلول القوات الإنجليزية المحتلة أذيالها واستعدت للرحيل.. وسرتْ فى مصر روح جديدة أيقظتها من سبات عميق.. ولم يعد السلاح الفاسد إلى الجنود مرة أخرى.. بل جاء مكانه سلاح جديد حديث.. ونوعت الثورة مصادره.. وأجادت تدريب الجنود على حسن استعماله.. فأعادت لهم ثقتهم فى أنفسهم وقادتهم.

وأشعلت ثورة مصر النيران فى كل مكان، فهبّت الشعوب المغلوبة على أمرها تقاوم المستعمر وتقضى على الظلمة وتطيح بالخائنين.. وفى كل يوم نسمع عن ثورة فى بلد ورجال حطموا القيود والأغلال واستردوا حريتهم وكرامتهم.. واعتبر ثوار مصر أن ثورتهم هى الرائدة فساندوا كل عمل تحررى يقوم به شعب مغلوب على أمره.

ومرت الأيام سراعًا تثمر كل يوم جديدًا.. وأوشك أحمد وجابر على الانتهاء من دراستهما فى أحد المعاهد التى تدرب المرشدين البحريين وتفاتح الأم ابنها حسينًا فى الزواج.. إنها تريد أن تفرح به وتزيل الصدأ الحزين الذى خيم على قلبها سنوات عجافًا.. ويرد عليها فى رفق: لم يحن الوقت بعد يا أمى، ولن أفكر فى الزواج حتى ينتهى أخواى من التعليم وتتزوج أختى زينب.. ويبتسم قائلاً: أنتِ لى الأم والزوجة وكل شيء فى الحياة، لقد حملتِ

الرسالة وذاب شبابك من أجلنا. أفلا ترضَين أن أحمل معك جزءًا من الرسالة بعد أن أصبحت قادرًا على ذلك؟ وتبتسم الأم ابتسامة المحب وتسكت إلى حين، ويتنقل حسين فى عمله بين مدن القناة، وهو سعيد مسرور لأنه يقدم لوطنه خدماته، ويواصل المسيرة التى بدأها والده من قبل حتى سقط شهيداً فى سبيلها.. وترك أبناءه ليكملوا ما بقى من هذا طريق.

وعرفت الأم ما لم تكن تعرفه من قبل.. عن اشتراك حسين مع الفدائيين فى ضرب المعسكرات الإنجليزية، وسر غيابه الطويل فى بعض الليالى، وعدم تصديقها لوالده حينما حدثها عن شكه فى ذلك.

وعاد حسين فى أحد الأيام مبكراً ودخل على أمه فرحًا وهو يقول : ألم تسمعى يا أمى بما حدث؟ فرددت باسمة: شغلنى المطبخ وإعداد الطعام لكم عن سماع شيء ما.. فأجابها سريعاً: لقد أعلن الرئيس عبد الناصر منذ ساعات تأميم قناة السويس وعودتها لمصر بعد أن ظلت ردحًا طويلاً من الزمن فى أيدى الأجانب المستغلين. مما كان يمثل أكبر استعمار حقيقى لمصر.. فقد حفرت بأيدى الحفاة والرعاة من أبناء هذا الشعب تحت وطأة السياط والتعذيب.. وحينما أصبح لها عائد يداوى جراح هؤلاء ابتزه الآخرون واستغلوه لأنفسهم.

ووضعت الأم ما بيدها من أشياء وقالت فى فرحة: حقًّا يا بنى؟!.. إنه عمل عظيم؛ فهذه القناة هى المسمار الذى دقه المستعمر فى بلادنا ليظل مهيمنًا به على كثير من الشئون الاقتصادية والسياسية فى بلادنا والمنطقة العربية كلها، وفى يقينى يا بنى أن هذا التأميم لن يمر بسهولة.. فلن ترضخ الدول المساهمة فى القناة لهذا التأميم وتسلّم لعبد الناصر بسهولة.. إنها ذريعتهم للبقاء، ولا

أستبعد قيامهم بعمل عسكرى لإجهاض قرار عبد الناصر وعودة القوات الأجنبية إلى مدن القناة مرة أخرى.

وردّ حسين بسرعة: ليس هذا هو موطن الخطر يا أمى.. ولكن كما سمعت فإن عمل القناة سيتعطل بانسحاب المرشدين الأجانب، وهنا يدّعون أن مصالح العالم تعطلت لأن مصر لا تستطيع إدارة القناة وحدها، ويتخذون من هذا دافعًا للقيام بعمل عسكرى.. ونحن لا نملك المرشدين المدربين الذين يعوضون المرشدين الأجانب إذا ما رحلوا.. وأظن أن عبد الناصر لا يخفى عليه هذا المخطط، وأنه قد أعدّ له عدته.

قالت الأم: نعم يا بنى فبقدر فرحى بهذا التأميم أُحسّ بانقباض فى صدرى لا أعرف له سببًا، ويخيل إلىّ أن أحداثًا خطيرة ستقع نتيَجة لهذا التأميم.

وعادت إلى متابعة الأعمال التى كانت فى يدها وهى تقول: نسيت أن أخبرك أننى قدّمتُ لأخويك جابر وأحمد طلبين ليعملا فى هيئة قناة السويس كمساعدَيْن فى الإرشاد البحرى، وعليك أن تحضر لهما شهادة تثبت أنهما نجلا الشهيد عبد الخالق.. وأنت على استخراجها أقدر منى، وهى دافع قوى لسرعة تعيينهما.

ضحك حسين ضحكة عريضة وهو يقول: الحمد لله يا أمى.. ثقى بأننى سأقوم بعمل اللازم، ولن يمر وقت طويل حتى يكونا فى عداد موظفى القناة وعندها تستريحين من متاعبنا.. ولن يبقى معك سوى زينبَ.. وبعد زواجها سوف تشتاقين إلى متاعبنا.. ولكن مَن سيتركك للراحة؟. سيكون أولاد زينب وأولادنا هم العوض المتعب عنا، وستربينهم كما ربيتينا. وهمس فى أذنها: ألا تفكرين فى زواج زينب؟ لقد كلمنى عنها أحد زملائى، وهو مناسب لها ولا

بأس به . . والبنت دائمًا مصيرها للزواج . . ويدو أنه أعجب بأخلاقها فأرادها زوجة له ، فعلى بركة الله يا أمى .

ردت الأم بسرعة : لا لا . . إنها مازالت صغيرة لم تبلغ بعد السابعة عشرة من عمرها ، وزواج البنت فى هذا السن الصغيرة فيه مخاطر وأضرار .

قال حسين : إننى أفضل زواج البنت فى سن مبكرة . . ويبدو أن جذور الريف مازالت فى أعماقى ولم تستطع حياة المدينة أن تقتلع شيئًا منها . . وكما تعلمين فإن أبناء الريف يزوجون بناتهم فى هذا السن . وعمومًا الأمر متروك لكِ تقدرينه كما ترين ، فأنتِ أدرى بها منى .

قطع عليهما الحديث وصول أحمد وجابر وهما يتغنيان بتأميم القناة والضربة الموجعة التى كالها عبد الناصر للمستعمرين بهذا التأميم ، وبلغ حماس الشعب أشده بهذا العمل الذى رد إليه بعض كرامته المهدرة عبر قرون طويلة مضت .

ونامت مدن وقرى مصر كما نامت مدن القناة على فرحة غامرة بيوم من أيام النصر ، وهللت الشعوب العربية والمحبة للسلام والحرية لحق أعيد لأصحابه . . وأزيح تمثال ديليسبس الذى يقف شاهداً بغيضًا على النصب والتسلط ، فمن الأولى أن يوضع مكانه تمثال فلاح مصرى مناضل شق بيديه القناة .

واشتعلت قلوب المستعمرين غضبًا ، وأحسوا بقرب نهايتهم فى مصر ، وأن الواجب عليهم أن يبادروا بعمل ما قبل أن تجرفهم مياه القناة وتلقى بهم فى البحر الأبيض أو الأحمر إلى غير رجعة .

وفى صبيحة أحد الأيام ، استيقظت بورسعيد وغيرها من مدن القناة على هدير الطائرات ودوىّ المدافع وفحيح الجنود الأجانب الذين تجمعوا للانقضاض على مصر وانتزاع وليدها المسلوب الذى استردته من براثن المختطفين . .

وتحالفت فرنسا وبريطانيا مع إسرائيل التى وجدتها فرصة سانحة لإجهاض ثورة مصر والعودة بها إلى التخلف مرة أخرى.

وانتشر المغتصبون فى المدن الساحلية يريدون أن يعيدوا عقارب الساعة إلى الوراء.. وهبّتْ مصر بكل ما تملك للدفاع عن كيانها.. وحاولت أن تصد بإمكانياتها الناشئة ثلاث دول عاتية تريد ابتلاعها.. وتقاطرت كتائب الفدائيين من كل جانب بكل ما تملك لم يوقفها عجز فى السلاح أو نقص فى التدريب لأن أيمانها القوى ووطنيتها الصادقة أقوى من أى سلاح.

وصارت شوارع بورسعيد وغيرها مصيدة سهلة لجنود الاحتلال.. وتناقلت الأخبار أعظم القصص عن الأعمال البطولية للمقاومة الشعبية التى ظهر أثرها الفعال سريعًا.

فبعض النساء يستدرجن الجنود ويقتلنهم داخل المنازل أو خلف الجدران المظلمة، واستعملن أغطية القدور حينما أعوزهن السلاح، فقطعوا للعدو الرقاب وبقروا البطون.

واستعمل الأطفال الأطعمة المسمومة أو المحشوة بالمتفجرات.. وتربص المقاتلون والمتطوعون بهم فى كل مكان فلم يتركوا لهم مهربًا يتسللون منه.. وتحولت هذه المدن ـ كما كانت مصر دائمًا ـ مقبرة للغزاة، وبقى شعبها الأبىّ رافع الرأس موفور الكرامة.

وأدى جنود الجيش وضباطه واجبهم على خير وجه، وكانت الملاحم الرائعة التى أوقفت العدو فى مكانه.. ولم يستطع أن يحقق الهدف الذى غامر من أجله.. وهبّت الدول المحبة للسلام تدافع عن حق مصر فى قناتها وأرضها.. ومادت الأرض تحت أقدام الغزاة.. وغرقت فى دماء الأبطال من أبناء هذا

الشعب الأبى الذين قدموا أرواحهم فداء لكرامة وطنهم.

ولم ينحن هذا الشعب أو يخضع لأى ضغط أو مؤامرة.. وحينما انسحب جميع المرشدين الأجانب من العمل بقناة السويس وتوقفت الملاحة فيها استيقظ المارد النائم، وأرشد السفن العابرة بمساعدة بعض الدول الصديقة.. ولم تمض شهور قليلة حتى أجاد شباب مصر عملية الإرشاد ونجحوا فيها نجاحًا باهرًا.. فكأن المستعمر فى الماضى كان يكبلهم بالأغلال ويضع أمامهم العراقيل، وبعد رحيله انطلقوا يبدعون فى كل مكان.

ولم تكن هذه الأحداث بعيدة عن السويس فقد أصابها جانب كبير من هذا البلاء، ودافع أبناؤها عن بلدهم ببسالة وشجاعة، وعاشوا فى محنة عدة شهور انسخلوا من ظلام الليل إلى ظلام النهار.. وساهمت أسرة الشهيد الصول عبد الخالق بأكبر نصيب من الجهاد والنضال.. فحسين الابن الأكبر يعمل فى القوات المسلحة ويتنقل بين مدن القناة، وهو بطبيعته فدائى مقاتل، ولا تكاد أمه تراه إلا بين الحين والآخر لفترات قليلة.

وجابر وأحمد التحقا بالعمل فى هيئة قناة السويس مساعدَين فى الإرشاد البحرى.. ومن هذا الموقع يعتبران أكثر تعرضًا للخطر من أى مكان آخر؛ لأن منشآت قناة السويس كانت هدفًا للمستعمر.. وزينب تخرجت من أحد معاهد التمريض.. واستدعيت مع غيرها على عجل للعمل فى المستشفيات التى اكتظت بالمصابين نتيجة القتال الدائر فى مدن القناة، وهى تقضى لذلك معظم أوقاتها بجانب أسرة المرضى.

وتجلس الأم بجوار النافذة كما كانت تجلس فى الماضى تنتظر الغائبين من أولادها فى ثبات وإيمان لا يتزعزع.

وتعود بها الذاكرة إلى الخلف . . إلى سنوات مضت . . حينما كانت تجلس فى نفس المكان وقد أخذت زينتها تتوقع وصول زوجها بين وقت وآخر . . تطمئن على نوم أولادها أو تثرثر مع بعض الجيران المقربين منها فى مداعبات باسمة يدور أكثرها حول الزوج الغائب وقرب وصوله . . وهل نام الأولاد حتى لا يشغلوها عن الترحيب بالبطل العائد أم مازالوا مستيقظين؟ وأكثر جيرانها من الذين يعمل أزواجهم بعيداً عنهم . . فهم جميعًا مثقفون ويتفاهمون بشعور واحد .

عندئذ طفرت من عينيها دمعة وفاء لزوجها الراحل . . فرغم السنوات الطويلة ًالتى باعدت بينه وبينها مازالت أصداء الذكريات تطنّ فى أعماقها ولاسيما حين تجلس منفردة . . وكم ودّت لو أن لزوجها قبراً معروفًا يزار فربما خفف ذلك من لوعتها . . ولكنها لا تدرى أين يرقد جثمانه . . وحملتها الظنون إلى متاهات مظلمة طوّحت بها بعيداً، وتذكرت ما كانت تسمع من زوجها عن الشهداء الذين يتساقطون وتدوسهم جنازير الدبابات ويتركون فى العراء يتخطفهم الطير أو تهوى بهم الريح فى مكان سحيق، ولا يجدون مَن يواريهم التراب حتى يهيئ الله لهم رجلاً شهمًا كزوجها يحفر الأرض ليوارى ما بقى منهم .

ترى هل وجد زوجها من يكافئه بالمثل فيحفر له قبراً، أم تناوشته الطيور والسباع ومزقته العربات فلم تُبق له أثراً؟ .

واستبدّ بها الحزن وفاضت من حولها الذكريات، فلم تشعر بقدوم زينب حينما فتحت الباب وبحثت عنها فى حجرات المنزل فلم تجدها . . فذهبت إليها فى المكان المحبب الذى اعتادت الجلوس فيه . . وضمتها إليها فى رفق وحب

محاولة إبعاد شبح الذكريات الحزين عنها . . فقالت لها : إن شخصًا من أصدقاء إخوتها يرغب فى الزواج منها ، وقد حدثها عنه أخوها أحمد من قبلَ ، ولكنها لا تريد أن تبتّ فى الأمر حتى تعرف رأيها .

وقالت الأم فى نبرة هادئة وكأن صوتها آت من مكان بعيد : نعم علمتُ به من أخيك أحمد الذى أثنى عليه كثيراً ، وأظنكً تعرفينه جيداً . فإذا كنت ترضين به فأنا موافقة وعلى بركة الله . . ووضعت يدها على رأس ابنتها فى حنَان يحمل فى ثناياه أجمل ما فى قلب الأم من عطف وحب لا يوازيه شيء فى الوجود .

وسألتها عن أخيها حسين حيث لم تره منذ أسبوعين تقريبًا وهى مشغولة عليه ، ولعلها قد رأته فى مكان ما .

فقالت لها زينب : لا تشغلى نفسك يا أمى فهو فى خير ، وأنت تعرفين الظروف التى يمرّ بها الوطن الآن ، وهو يتنقل من مكان إلى مكان لأنه موَضع ثقة قادته . . فربما ينقل ذخائر أو معدات إلى المقاتلين . . فثقى بالله واعتمدى عليه ، فالله خيرٌ حافظًا وهو أرحم الراحمين .

إن المستشفيات تمتلئ بالجرحى حتى ضاقت بمن فيها ، ويأتى كل يوم وافدون جدد أطفال ونساء وشيوخ وشباب . . فالمعارك لا تفرّق بين صغير وكبير ، والمستعمرون قساة الأكباد غلاظ القلوب لا تعرف الرحمة إليهم سبيلاً . . ومن الخير يا أمى ألا أحدثك بما أشاهده كل يوم من فظائع وأهوال .

وغيّرت مجرى الحديث مع أمها واتجهت إلى المطبخ لتعدّ لهما العشاء . . وبينها وبين نفسها ساورها قلق على أخيها حسين لأنها تعرف مدى كراهيته للإنجليز واندفاعه فى قتالهم والنيل منهم . واستبدّت بها أفكار مزعجة حاولت أن تبددها بأعمال أخرى حتى لا تبدو أمام والدتها فى صورة الخائفة فتزيد عليها

الهموم والآلام.

وأعادها إلى هدوئها وصول أخويها أحمد وجابر بعد غيبة استمرت عدة أيام.. وفرحت بهما الأم فرحة غامرة أنستها بعض أحزانها وذكرياتها التى كانت تسبح فيها منذ لحظات.

واستفسرت منهما عن سبب تأخيرهما هذه المدة الطويلة.. فقال لها أحمد: إن الأحداث الخطيرة التى نعيشها الآن هى التى حالت بيننا وبين العودة.. فالمعتدون منتشرون فى كل مكان والمقاومة تلاحمت مع الجيش فى ضرب المعتدى.. الملاحة فى القناة معطلة بعد انسحاب المرشدين الأجانب.. ونحن بخبرتنا الناشئة نحاول تعويض هذا النقص.. وطلبنا الاستعانة ببعض المرشدين من الدول الصديقة فاستجابت لنا اليونان وغيرها.. ولن نستطيع أن نترك هؤلاء بمفردهم فى هذا الجو العاصف الملبد بسحب الحرب، ودورنا معهم دور المساعد والمعين.. ولاشك أننا نستفيد منهم خبرة ودراية فى مجال كان قاصراً على الأجانب فقط.. ولن تمضى شهور قليلة بإذن الله حتى نتسلم نحن زمام الموقف ونقود السفن الداخلة للقناة والخارجة منها بمفردنا، ولن نحتاج بعد ذلك إلى مرشدين أجانب إطلاقًا، ولهذا فإننا نلازم عملنا باستمرار وأُعطينا راحة قصيرة لنطمئن عليك وعلى زينب ولا سيما أنها تمارس عملية التمريض فى مستشفيات أكثرها يقفَ على المواجهة مع العدو.

سعدت الأم بحديث ابنها وتأكدت أنها انتصرت على الظروف التى ناصبتها العداء كثيراً.. ولكن فرحتها بأحمد وجابر لم تُنْسها الخوف والقلق على حسين.. فعاودت السؤال عنه.. ورد عليها جابر بأَن طبيعة عملهما مختلفة؛ فهما يعملان فى جانب ويعمل هو فى جانب آخر.. ومن النادر أن يلتقيا، وطمأنها بقوله: سيعود إلينا سالمًا بإذن الله.. فلا تذهب بك الأفكار إلى بعيد

وتتخيلين أوهامًا حزينة تنغص الحياة. والتأم شمل الإخوة والأم على مائدة العشاء، وتناثر بينهم الحديث فى مواضيع شتى من بينها الحديث عن زواج زينب.

وابتسم أحمد وهو يقول لأخته: يبدو يا زينب أنك راضية عن العريس القادم، وهو جدير بك ويستحق الموافقة عليه.. وبعد انتهاء هذه الغمة الطارئة وعودة الأمور إلى طبيعتها سنبتّ فى الأمر ونستعد لزواجك.

خفضت زينب رأسها فى خجل ورددت: الأمر لكما وأنتما تعرفانه أكثر منى.. وأعتقد أن الظروف التى نمر بها لا تساعد على الحديث فى هذا الأمر، فلنتركه الآن لنرى ما سيأتى به الغد، ولا ندرى ما فى ضمير الغد من خير أو شر.. ومتى سينتهى هذا الكابوس الذى تعيشه بلادنا الآن.

وقال أحمد: اطمئنى، سينتهى قريبًا ويخرج العدو منهزمًا.. فالمقاومة عنيفة والإصرار على طردهم عقيدة ثابتة لدى كل مصرى.. وأمريكا وروسيا لم توافقا على هذا العدوان وهددتا المعتدين إذا لم ينسحبا. لهذا أعتقد أن الظلام سينقشع قريبًا وتعود الأمور إلى سيرتها الأولى. وقبل أن يأوى الأخوان إلى فراشاهما بعد يوم حافل بالعمل وأمسية مشحونة بالحديث والسمر، قال أحمد: ربما أنتقل يا أمى إلى العمل فى إحدى الوحدات البحرية على شواطئ سيناء لفترة قد تطول أو تقصر.. وهذا سيتم بعد جلاء المعتدين؛ لأن المسئولين فى القناة أعجبوا بمهارتى واستيعابى السريع لما أشاهده من المرشدين الأجانب حتى صرت أقوم بالعمل الذى يقومون به تمامًا ولا أقلّ عنهم فى أى جانب، ولا شك أن فى هذا النقل ترقية.. فسوف توكل إلىّ مهمة كبيرة أرجو أن أحسن القيام بها. وإذا طالت مدتى هناك فستأتين معى بعد زواج زينب واستقرار جابر..

وسبحت الأم طويلاً بعينها تجاه الشرق كأنها تبحث عن ضالة شاردة هناك وقالت: نعم يابنى. . فربما تعثر على قبر أبيك فى جهة ما تحت رمال سيناء.

وضع أحمد يده على كتفها فى رفق واستمر يقول : اطردى هذه الأفكار يا أمى وابتسمى معنا للحياة، ولا يشدّك الماضى بأحزانه عن الحاضر بأفراحه وآماله. . إننا نستعد لنفرح بزينب بعد تحرير أرضنا، وبعدها نحن يا أمى.

كانت كلماته الحانية بلسمًا داوى جراحها. . فعادت إلى إيمانها وصبرها تعتصم بهما، وعزمت على أن تغرس لأولادها طريق الورد، وتعبر بهم جسر الأحزان، ولا تدع طيوف الماضى تترك فيهم أنينًا أو جراحًا. . وابتسمت أما أولادها بسمة راضية سعيدة أودعتها كل ما فى قلبها من حب وأمل وتفاؤل.

وعادت حديثها عن السياسة والحرب لتشعر أولادها بأنها تعيش الحاضر من أجلهم؛ فهم أملها ومستقبلها والخيط القوى العزيز الذى يربط ماضيها بهذا الحاضر.

وقالت: أنا أفهم أن يناصبنا الإنجليز العداء ويحاربوننا، فقد طردناهم من بلدنا شر طردة بعد استعمار دام طويلاً حتى استقر فى وجداننا أنه لن ينتهى أبدًا.

وأفهم أيضًا دوافع إسرائيل فى هذا العدوان. . فهو فرحتها لتنتقم من عبد الناصر الذى أيقظ الأمة العربية وأعاد إليها الروح، ووضعها على طريق الحياة بعد أن أوشكت أن تلفظ أنفاسها الأخيرة. . وهو القوة التى تستطيع أن تقضّ مضجعها فى فلسطين ولا تدع لها فرصة البقاء والتوسع. . وعليها أن تجهض قوته العسكرية التى بدأت تنمو، وغير بعيد سوف تتحول إلى عملاق جبار يبطش بها ويحجم آمالها وطموحها فى التهام العالم العربى وامتصاص

خيراته . . ولكننى لا أفهم اشتراك فرنسا فى هذا العدوان وانسياقها وراء بريطانيا إسرائيل .

قال أحمد : إن لفرنسا ثأراً لدى مصر التى تقف وراء ثورة الجزائر وتمدها بالسلاح والتأييد ، وهوارى بومدين قائد الثورة الجزائرية تعلّم فى مصر ويتخذ منها مع رفاقه القاعدة الخلفية لهم . . وأحمد بن بيللا الساعد الأيمن للثورة لا يُبرم أمراً دون مشورة عبد الناصر . وهل نسيت يا أمى دور مصر فى تحري تونس والمغرب وأين كان يعيش قادة هذين البلدين؟ إن الحبيب بورقيبة أدار معركة استقلال تونس من القاهرة وكذلك زعماء المغرب . . ووجدت فرنسا أن هذه فرصة تنتقم فيها من مصر وتحدّ من نفوذها . . بالإضافة إلى ضياع الأرباح الهائلة التى كانت تجنيها مع بريطانيا من قناة السويس نتيجة لتأميمها .

وكأنما كانت هذه الحقائق غائبة عن الأم فقالت : نعم . . لقد نسيتُ فى تزاحم الأحداث ومرور السنين هذه الأشياء . . لقد كان والدكم ـ رحمة الله عليه ـ يشرح لى كل شيء ويعتبرنى تلميذته الصغيرة . . فرغم مؤهله المتوسط إلا أنه كان على ثقافة عالية ، ومعلوماته الغزيرة يستمدها مما يقرأ أو يسمع . . ولم يكن يخفى عليه شيء مما يدور حولنا .

وكثير ممن يجالسونه يجدون متعة وفائدة فيما يمدّهم به من معارف . . ولازالت أصداء حديثه تعايشنى حتى الآن . . ومن بعده أستقى ما أعرف منكم أو مما يتناقله الناس .

عادت الابتسامة إلى أحمد وهو يقول لها : ها أنت تعودين إلى الماضى مرة أخرى . . لقد أوغل الليل طويلاً يا أمى وتسلل النوم إلى أجسادنا بعد عناء يوم طويل . . فهيا إلى النوم ولنا حديث آخر فى الصباح .

وانصرف كل إلى مضجعه . . يحمل فى خياله ووجدانه صوراً شتى ربما لا تمتّ من قريب أو بعيد إلى ما يحمله الآخر . . وأوغل الليل فى مسيره وراح كلٌّ فى سبات عميق استعداداً لاستقبال يوم جديد بما يحمل من خير أو شر، وسلام أو حرب، وموت أو حياة.

obeikandl.com